

التفسير المطول - سورة المائدة ٠٠٥ - الدرس (٣٠ - ٤٩) : تفسير الآية ٦٣، الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-٠٥-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

آية اليوم تشير إلى الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه :

أيها الأخوة الكرام؛ مع الدرس الثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثالثة والستين، وهي قوله تعالى:

لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ (٦٣)

(سورة المائدة)

وقبل هذه الآية:

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (٦٢)

(سورة المائدة)

أيها الأخوة؛ كأن آية اليوم تشير إلى الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه، فالله عز وجل يقول: (لَوْلَا) ولولا تفيد في اللغة الحض، لولا فعلت كذا، أي افعل كذا: (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) .

القدوة أبلغ من التبليغ :

قال علماء التفسير: الربانيون علماء النصارى، والأحبار علماء اليهود، أو الربانيون المنسوب إلى الرب، فهذا الذي يدعو إلى الله منسوب إلى الله، محسوب عليه، هذا الذي يدعو إلى الله المنسوب إلى الله، فلولوا تفيد في اللغة الحض، لولا فعلت كذا، أي افعل كذا: (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) .

يمثل وحي السماء، يمثل كمال الإسلام، يمثل العلم، يمثل الورع. لذلك سيدنا علي رضي الله عنه يقول: قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه، أي عالم يطبق علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه.

ما الذي يحصل؟ قال: إذا ضيع العالم علمه، لم يستعمل علمه، لم يطبق علمه دعا إلى شيء وهو لا يطبقه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، صار هذا الإنسان أداة لتنفيذ من الدين، لأنه تكلم شيئاً وفعل شيئاً آخر، هذا الإنسان يحمل الناس على أن يكفروا بالكلمة.

الأنبياء بماذا جاؤوا؟ جاؤوا بالكلمة، لم يأتوا لا بالبوارح، ولا بالصواريخ، ولا بالطائرات، ولا بحاملات الطائرات، ولا بالكمبيوتر، جاء الأنبياء بكلمة صادقة، فقلبوا وجه الأرض، لكن الكلمة حينما لا تكون صادقة يكفر الناس بها، وهذا الذي حصل، لذلك الخطاب الديني الآن في أكثر الأحيان لم يحقق أهدافه، لأنه الأنبياء حينما طبقوا ما قالوا، قلبوا وجه الأرض، والذين ينقلون العلم للناس إذا لم يطبقوا حملوا الناس على أن يكفروا بالكلمة، قال: فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنياه غيره، الفقير كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: كاد الفقر أن يكون كفراً، فالفقير حينما لا يجد حاجته، ولا كرامته، ولا يرى حقوقه، يكفر بكل شيء، فيبيع نفسه للشيطان، وهذا الذي يحصل.

إنذاً: البطولة لا أن أتصدر المجالس، وأن ألقى المواعظ، البطولة أن أكون مثلاً أعلى، أن أطبق ما أقول، والحقيقة النطق سهل، أي إنسان آتاه الله ذاكرة قوية، وحافظة متينة، وطلاقة لسان يبلغ ويتكلم، لكن أن تكون في مستوى ما تبليغ، وأن تفعل ما تقول، وأن تحقق ما تقول لتكون قدوة، فهذا الذي يريده الله عز وجل.

لذلك الأنبياء العظام لهم مهمتان كبيرتان، المهمة الأولى أنهم قدوة، والمهمة الثانية أنهم

مبلغون، لكن القدوة أبلغ من التبليغ، الله عز وجل يقول: **(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ)** هؤلاء الربانيون

المنسوبون إلى الله، المحسوبون عليه، الذين يمثلون وحي السماء، يمثلون الكمال البشري، من هنا قال بعضهم: الورع حسن، لكن في العلماء أحسن، والتوبة حسنة، لكن في الشباب أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن

."

الآية التالية تتحدث عن دور العلماء الذين حملهم الله أمارة التبیین :

الأزمة الآن أزمة خطاب ديني، وكان هذه الآية تتحدث عن دور الذين ينطقون بوحى السماء، عن دور الدعاة إلى الله، عن دور العلماء الذين حملهم الله أمانة التبيين. خليفة في موسم الحج التقى مع أحد العلماء، قال له: سلني حاجتك، قال له: والله إنني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج المسجد قال له: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها، فأسألها من لا يملكها؟ فلما ألح عليه قال: نجني من النار، وأدخلني الجنة، قال له: هذه ليست بيدي، قال له: إذا ليس لي عندك حاجة، أ رأيت إلى هذه العفة. الحسن البصري سئل: بم نلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي، فكيف إذا استغنى الأمراء عن علم العالم، والعالم احتاج الأمراء في دنياه، انتهت مهمته، الله عز وجل يقول:

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

(سورة الأحزاب)

هؤلاء ما صفاتهم، لهم آلاف الصفات، أليس هذا المبلغ صادقاً، طبعاً صادق، أليس أميناً؟ أمين، أليس مصلياً؟ مصلاً، أليس صائماً؟ صائم، أليس ورعاً؟ ورع، لماذا أغفل الله كل هذه الصفات، ولم يذكرها، اكتفى بصفة واحدة، قال: **(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)** لو أن هذا الذي كلفه الله أن ينقل العلم للناس خشي من غير الله، ما الذي يحصل؟ سينطق بالباطل إرضاء له، وسيسكت عن الحق خوفاً منه، فماذا بقي من دعوته؟ انتهت دعوته، آية دقيقة جداً: **(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)** أبو جعفر المنصور قال لأبي حنيفة النعمان: يا أبا حنيفة لو تغشيتنا، فقال له: ولم تغشاكم؟ فليس لي عندكم شيء أخافكم عليه، وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟

الدين توقيفي لا يقبل التغيير ولا التعديل ولا التطوير ولا الزيادة ولا النقصان :

أخوتنا الكرام ؛ **(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ)** المشكلة الآن أن الشرع في هذا المستوى، بمستوى عال، وأن الناس في مستوى متدنٍ، الداعية أو العالم أمامه خياران، إما أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، وإما أن يهبط إليهم، الحالة الثانية أهون وأسهل، وتوسع له قاعدته بشكل كبير جداً، ويصبح عالم العصر، وهذا الإنسان المرن الواقعي الحديث العصري، لكن على حساب أحكام الشرع، هذه يجوز، وهذه يجوز، وهذه بلوى عامة، وهذه فيها رأي ضعيف، وهذه فيها رأي شاذ،

فإما أن يهبط إلى الناس، أو أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، إذا أراد أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع لا يرتفع معه إلا قلة قليلة، أما إذا هبط إلى مستوى الناس يرى جماهير لا تعد ولا تحصى، هذه مشكلة موجودة في الأديان السماوية الثلاثة، فإما أن تتملق الناس، وأن تفتي لهم بما يهون، وأن تقدم لهم الحلول التي لا ترضي الله، ولكنها ترضي غرورهم، أو ترضي شهواتهم، أو ترضي شبههم، وإما أن تصر على موقف دقيق، أهم شيء في هذا الموضوع أن الدين توقيفي، معنى توقيفي: أنه لا يقبل التغيير، ولا التعديل، ولا التطوير، ولا الزيادة، ولا النقصان، لا يقبل هذا أبداً لأنه توقيفي، ولأنه من عند الله، لو كان من عند البشر فالبشر كماله نسبي، وإطلاعه نسبي، وفهمه نسبي، ودائرته متعلقة بالواقع، أما لأنه من عند خالق البشر، فكمال هذا الدين مطلق، لذلك أي حذف اتهام لهذا الدين بالزيادة، وأي إضافة اتهام لهذا الدين بالنقص، ولأن الله عز وجل يقول:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالِدَمُّ وَالْخِنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْقُودَةُ
وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ۚ ذَلِكُمْ
فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَحْشَوْنِ ۗ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۗ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ ۖ لِإِثْمٍ ۖ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

(سورة المائدة)

التجديد في الدين :

أي إن عدد القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً، وأن طريقة المعالجة كاملة نوعاً، إذاً هذا الدين توقيفي، وما التجديد التي يروج له؟ هذا التجديد يروج له الآن بشكل لا يتصور، هناك ترويج للتجديد، أما التجديد الذي يروج له فلا يفهم في هذا الدين إلا على النحو التالي، أن ننزع من الدين كل ما علق به مما ليس منه.

هذا هو التجديد، أي بناء من أرقى أنواع الحجر تراكمت على هذه الأحجار عبر السنين والحقبة طبقة سوداء شوهت منظره، فلذلك التجديد أن ننزع عن هذا البناء كل ما علق به مما ليس منه، أما أن نفهم التجديد تطوير في أسلوب الخطاب الديني فلا مانع، أن نتخذ قنوات جديدة في الخطاب الديني لم تكن معروفة من قبل لا مانع، لأنه:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَةٍ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

(سورة إبراهيم)

أي بطريقة نقل المعرفة في قومه، فقد نستخدم أساليب الآن لم تكن من قبل، مثلاً الآن هناك مجال كبير جداً عبر المواقع المعلوماتية، فقد يدخل على هذه الصفحة مئات الألوف، الذين يستخدمون هذه المواقع يزيدون في الأرض عن ثلاثمئة مليون، فإذا أحسنت استخدام هذه القنوات الدعوية الجديدة فهذا تطوير في أسلوب الخطاب الديني.

كنا حينما نحضر مؤتمراً نأتي بمحاضرات والله بحجم هذه الطاولة، حملها صعب، الآن يعطى الذي حضر المؤتمر قرصاً مدمجاً فيه ثلاثمئة موضوع، كل موضوع مننا صفحة في قرص يوضع في الجيب ولا يرى، هناك تطوير، فتطوير الخطاب الديني بمعنى توفيق التقنية الحديثة بنشر هذا الدين، إذاً هذا مسموح به، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) .

النهي يحتاج إلى إرادة قوية وإلى تضحية و ورع و خوف من الله :

إذاً: (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) أنت تمثل الدين، وقيلت أمامك كلمة تتعارض مع الدين، إذا بقيت ساكناً أسلم لك وأكثر راحة، مصالحك محققة، وتعيش في بحبوحة، ليس عندك أي مشكلة، وإنسان تكلم، وتحداك بكلام يتناقض مع الدين، وافقه أسلم لك، إذاً: النهي يحتاج إلى إرادة قوية، يحتاج إلى تضحية، يحتاج إلى ورع، يحتاج إلى خوف من الله، يحتاج إلى صدق، يحتاج إلى جرأة، يحتاج إلى شجاعة: (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ) معنى ذلك أن الناس يتكلمون بالإثم: (عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) هناك معاص بالقول، ومعاص باليد، يأكلون مالاً حراماً، هذه مسموح بها، تجد أعلى جهات دينية في بعض الأقطار العربية يفتون بأشد المعاصي حرمةً، وهي الربا، لا شيء عليك لو أودعت مالك في مؤسسة ربوية، وتقاضيت الفائدة على أنها عائدة؟ عوض الفاء عين، ولا شيء عليك، فالمعصية التي قال الله عنها:

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلَئِنَّ رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ

وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

(سورة البقرة)

إذاً هذه المعصية تهدم مجتمعات، لأن المجتمع البشري الله عز وجل شرع له أن يلد المال من الأعمال، وإذا ولد المال من الأعمال توزعت الكتلة النقدية في المجتمع على أكبر شريحة في المجتمع، عندئذ لا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم.

الدرس (٣٠ - ٤٩) : تفسير الآية ٦٣، الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه.

مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً ۗ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

(سورة الحشر)

المال قوام الحياة :

إذا سمحنا للمال فقط أن يلد المال عن طريق الربا تجمعت الأموال في أيدي قليلة، وحرمت
منها الكثرة الكثيرة، وتكاد تكون مشكلات أهل الأرض الآن مجتمعة في أن مليوناً لا يملكون واحداً،
وواحد يملك مليوناً، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة من سكان الأرض، تجد البذخ
وإتلاف المال والإنفاق غير المعقول بمجتمعات، وتجد القهر والفقير والحرمان بمجتمعات أخرى.
أنا ذكرت لكم في الأسبوع الماضي أنني زرت بلداً، رأيت ما لا يصدق، لا طعام، ولا
شراب، ولا كساء، ولا صحة، ولا تعليم، ولا أدوات، ولا شيء، ولا ثياب تستر عوراتهم، ومجتمع آخر
ما يأكله الكلاب في هذا المجتمع لا يأكله شعب كبير في آسيا، تسعمئة مليون، هذا التفاوت حينما يلد
المال المال، تتجمع الأموال في أيدي قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة، فكل ما يجري في العالم من عنف
الآن بشكل أو بآخر يمكن أن يفسر من خلال هذه المقولة، وقد عبر عنها الإمام علي رضي الله عنه:
كاد الفقر أن يكون كفراً، والإنسان حينما تعطيه رغيف خبز، وحينما تعطيه كرامته تأخذ منه كل شيء.
والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، والمال قوام الحياة، فإذا كان في مجتمع ما كتلة نقدية ينبغي أن تكون
متداولة بين أكبر شريحة من شرائح المجتمع. فحينما تأتي مراتب دينية عالية جداً، وتفتي بأكبر معصية
في المجتمع بتغيير كلمات والألفاظ، ماذا نقول؟ (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) كم
من إنسان ينقل مقولات لا أصل لها في الدين، عقيدة زائغة، ينقل مقولات تتناقض مع كلام الله عز
وجل، ومع كلام رسوله، وتروج، وفي محاضرات دينية أحياناً ينقل الذي وكله الله بالدعوة إليه أن
ينطق بالباطل، أو أن يسكت عن الحق، أو أن يتغاضى عن أكل مال حرام، قد تدخل إلى معبد لا تجد
فيه إلا الغناء والموسيقى، وقد تدخل معبداً ولا تجد امرأة محتشمة إطلاقاً، طيب ما الفرق بين الشارع
والمعبد؟ لا بد أن يكون هناك فرقاً، لذلك: (لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ) .

من صفات الداعية أن يكون ورعاً ولا ينافق :

أقول لكم أيها الأخوة؛ أنت حينما تسكت تسلم، لو شاهدت المعاصي على قارعة الطريق، لو أن مسلماً زارته بنت أخيه، وكانت في ثياب فاضحة، فاستقبلها ورحب بها، وسأل عن صحتها، وعن دراستها، وعن مستقبلها، وأثنى عليها، وعلى جمالها، هذا ماذا فعل؟ هذا أعطى المنكر دعماً، عزز المنكر: **(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)** نريد ما عندنا، دعونا من عند غيرنا، الذي وكله الله بنقل هذا العلم ينبغي أن يكون ورعاً، ينبغي ألا ينافق، ينبغي ألا يقول قولاً يثير حوله جدلاً كبيراً، مثلاً عقد قران يأتي إنسان يلقي كلمة فيثني على هاتين الأسرتين ثناء غير معقول، أنا أذكر مرة أنه عقد قران في مكان عام، والذين تكلموا أثنوا على الأسرتين الدمشقيتين، العريقتين، التقيتين، الورعتين، هذا عقد القران، العرس كان بفندق، وزعت الخمر، وجيء بالراقصات، والنساء شبه عرايا، هاتان الأسرتان العريقتان الدمشقيتان الورعتان التقيتان، أين مكانة العلم؟ انتهت مكانة العلم **(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)** المديح بلا طائل، بلا ثمن، بسرعة، من دون تحقق ، إنك إذا مدحته اضطرب الناس، لو إنسان لا يصلي، يشرب الخمر، وقلت لشخص أمامك، أمام أولادك: لبق، لطيف، عنده خبرات عالية بالحياة، فهيم يا أخي، ابنك راه يشرب الخمر، وهو فهيم، يقترب المعاصي، وهو ذو خبرة عالية بالحياة، اضطرب ابنك **(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)** .

بعض من أسباب هلاك بني إسرائيل :

لماذا أكثر الله من الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم؟ لأن كل الأمراض التي وقعوا فيها نحن مرشحون أن نقع فيها، وقد وقعنا فيها، ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)

(سورة المائدة)

ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ

[متفق عليه عن عائشة]

ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

قَالُوا يُمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۗ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَعِدُونَ

(٢٤)

سورة المائدة

كل واحد جالس مرتاح لا ينتقد، لا يأمر بالمعروف، لا ينهى عن المنكر، يجامل إلى درجة النفاق، مصالحه محققة، ومكانته كبيرة، وحوله هالة كبيرة جداً، لا داعي لأن يغامر بمكانته، مرض ،
(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) تتكلم كلاماً لا أصل له، تدرس بمدرسة أن الإنسان أصله قرد، أين أصبح آدم وحواء؟ ألغي القرآن بهذه الطريقة، تؤلف موسوعات علمية عن الإنسان الحجري، أي إنسان حجري؟ البشرية بدأت بنبي كريم، بهذه الطريقة ألغيت كل الأديان: (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) .

بعض أمراض المسلمين اليوم :

القول لا يتطابق مع الواقع، والواقع القديم من أعلمنا عنه؟ ربنا، الله عز وجل قال:

مَّا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

عَصَا(٥١)

(سورة الكهف)

حينما تقول: الإنسان بدأ بإنسان حجري متوحش، وكان أصله قرداً، أي أنت كنت وقتها؟ لكنك تردد كالبيغاء ما قيل لك، يقول كما تقول البيغاء، ما كنت وقتها أنت، لكنني قد أفاجئكم الآن أنني أمنت أخيراً بهذه النظرية، لكنها معكوسة، كان الإنسان إنساناً فصار قرداً، مسخ إلى قرد، لأنه همه بطنه وفرجه، هذا هو القرد، شكله شكل إنسان، الإنسان حينما ينسى سبب وجوده، وينسى غاية وجوده، وينسى أنه المخلوق المكرم، وأنه خلق ليعرف الله، حينما يصبح همه بطنه وفرجه وشهوته يمسح قرداً وخنزيراً، القرد همه بطنه، والخنزير همه فرجه (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) أنا أسقط هذه الآية على واقع المسلمين، دعونا من غيرنا، ولننتحدث عن أمراضنا نحن، إذا ينبغي أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، ينبغي ألا تسكت على خطأ، ينبغي أن تتنطق، أنا أروي قصة نموذجية: سائق سيارة على خط دمشق بيروت، ركب معه شاب وشابة، وتمنيا عليه أن ينتظر قليلاً حتى تأتيهم محفظة، انتظر السائق، بعد ربع ساعة جاء رجل كبير في السن بالسبعين، أعطاه المحفظة، فهذا الشاب وكزه على
الدرس (٣٠ - ٤٩) : تفسير الآية ٦٣، الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه.
8

رأسه معنفاً، لم تأخرت؟ لم ينتبه السائق، وضع المحفظة وانطلق إلى الشام، بعد ما قطع ثلث المسافة سمع الشابة تقول للشاب: لماذا ضربت أباك؟ وإذ بالسائق يوقف السيارة، قال له: أبوك هذا؟ انزل، هذا المبلغ، بهذه البساطة البالغة. عندما يرتكب إنسان جرماً كبيراً بحق أبيه والجميع صامتون الباطل يتعزز، ومن يقف في وجه المنحرف!!

قصة عابرة، لكنها تعبر على أن هذا الإنسان مؤمن، ما ارتضى أن يركب معه إنسان عاق بوالديه.

التفسير الأرضي يريح الناس والتفسير السماوي يزعجهم :

قال تعالى: (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) أنت في جلسة يقول أحدهم:

الآن في أدوية تطيل العمر، أنت ساكت والسكوت راحة لك، عندك في القرآن:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

(سورة الأعراف)

السكوت فيه راحة، مصالحه محققة، ليتكلموا بما يشاؤون، لا، ما وظيفتك؟ وظيفتك أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ) ما يعانیه المسلمون اليوم يفسر تفسيراً أرضياً، ما عندنا تقنية عالية، هذا السبب فقط؟ أين الله؟ أين وعود الله للمؤمنين؟ هناك أسباب أكبر، لكن دائماً التفسير الأرضي يريح الناس، والتفسير السماوي يزعجهم. زلزال، سهل جداً أن تقول: اضطراب بالقشرة الأرضية، وهذا شيء صحيح، التفسير العلمي لا يتناقض مع التفسير التوحيدي، يتكاملان، لما أراد الله أن يؤدي هؤلاء ساق لهم هذه المصيبة، أما هذه فأساسها اضطراب بالقشرة الأرضية، فكلما أردت أن تصف حال المسلمين اليوم بتخلفهم علمياً وتقنياً، وهذا شيء لا يكفي، الله وعد المؤمنين:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۗ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

(سورة الروم)

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة :

تسمع أحياناً أطروحات غير صحيحة، وغير مقبولة، أو الحل أن نكون مع الأقوياء، وأن ننبطح أمامهم، هذا حل أيضاً، عالم يجلس بمجلس ويتكلم كلاماً كهذا!؟
والله أنا كنت في سفر، وفي جلسة طرحت فيها ما تعانيه الأمة الإسلامية من ضغوط، ومن قهر، ومن قتل، ومن تدمير، ومن تحديات، الأشياء الآن لا تحتل، فالجو العام هبط، المعنويات هبطت إلى أدنى مستوى، فبعد أن انتهت الجلسة قلت لهم: اسمحوا لي بكلمة فيها إضاءة قرآنية لما نعانيه نحن اليوم من أزمات، قلت لهم: إنما يعانيه المسلمون اليوم من أزمات ما هي إلا رسالة من الله للمسلمين كي يغيروا ما في أنفسهم حتى يغير الله ما بهم، رسالة من الله، وأن جهة قوية في الأرض إذا خطت أن تبني مجدها على أنقاض الآخرين، وأن تبني حياتها على موتهم، على إبادتهم، الآن حرب إبادة، أن تبني عزها على ذلهم، أن تبني غناها على فقرهم، أن تبني أمنها على خوفهم، وأن تنجح الخطط على المدى البعيد فنجاح هذه الخطط على المدى البعيد لا يتناقض مع عدل الله فحسب بل مع وجوده، الله موجود.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)

(سورة الزخرف)

أكثر الجلسات الآن محصلة الجلسة معنويات هابطة، إحباط شديد، وكأن الله غير موجود، أعطى هؤلاء القوة فيفتكون بالناس ويدلونهم، ويهدمون البيوت، ويقصفون الأمنين كما ترون وتسمعون. لذلك أي معالجة لقضية مما نعانيها ينبغي ألا تبتعد عن التوحيد، لكن أنا لست مكلفاً أن أفهم حكمة الله فهماً مطلقاً بل فهماً نسبياً، وإذا قلت لي: لماذا يدع الله هؤلاء يفعلون ما يريدون، قد لا أملك أنا الجواب لكنني أملك القرآن، ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة. أملك أن أقول لهم:

وَمَا أَصْبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ ۖ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)

(سورة الشورى)

من أسباب هزيمة المسلمين أنهم يفتقرون إلى شروط النصر :

أملك أن أقول لهم: هان أمر الله علينا فهنا على الله، أملك أن أقول: إننا نفتقر إلى شروط النصر، رسول الله سيد الخلق، وحبیب الحق، ومعه نخبة الخلق، ولم ينتصروا في أحد لأنهم عصوا رسولهم، لو أن الله نصرهم لسقطت طاعة رسول الله، ولم ينتصروا في حنين لأنهم أشركوا:

خيرُ الأصحابِ أربعةٌ وخيرُ السرايا أربعُمائةٌ وخيرُ الجيوشِ أربعةٌ آلافٍ قال : وقال رسولُ

اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَنْ يُغْلَبَ قَوْمٌ عَنْ قَلَّةٍ يَبْلُغُونَ أَنْ يَكُونُوا اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا

(أخرجه أبو داوود والترمذي وأحمد)

فلو انتصروا لسقط التوحيد، نبي كريم معه أصحاب كرام، ولمعصية واحدة لم ينتصروا، إذا كان مليون شرك ومليون معصية لماذا لم تنتصر؟ مليون قضية شركية، ومليون قضية فيها مخالفة لمنهج الله، يجب أن تطرح الحق، معنا كلام الله، معنا سنة رسول الله، أما أن تجلس في مكان تُطرح قضايا خلاف القرآن وتسكت، وتهز رأسك بالإيجاب وتجاهل، هذه الفكرة سرت بين الناس، وأفسدت عقائدهم **(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)** هذا القول يبعدك عن الله عز وجل، بل يقربك من أعداء الله، الخلاص في أن نستسلم؟ الخلاص في أن ننبطح؟ الخلاص في أن نعطيهم ما يريدون؟ الخلاص أن نواليهم أو نؤس وقهر؟ انتهينا، إما حل استسلامي مهين أو يأس قاتل؟ هذا الذي يطرح بالمجالس الآن، تجد عالماً يجامل، أنت معك كلام الله، معك كلام النبي عليه الصلاة والسلام **(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ)** دخول لا تعد ولا تحصى مشبوهة بالحرام، وأن العبد يقول: يا رب، ويا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذيه بالحرام، فأنى يستجاب له.

أكل السحت أن تعتدي على كسب الآخرين :

أكل السحت أن تعتدي على كسب الآخرين. إنسان زرع أرضاً، وجمع الغلال، وباعها بالسوق، وقبض ثمنها، تعب سنة، جاء إنسان سرق منه هذا المال، هذا اسمه سحت، لماذا هو سحت؟ لأنه أخذ الكسب بغير الحق، أي دخل حرام هو سحت، إن غششت أخذت ثمن سلعة جيدة والسلعة غير جيدة، فهو سحت، إن كذبت، إن احتلت، إن دلست، إن احتكرت، أي كسب حرام، هو أخذ ما ليس لك أن تأخذه، هذا أكل سحت **(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)** لكن شيء يلفت النظر أن الله عز وجل في الآية السابقة يقول **(وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ)** كثيراً منهم، أي عامة أهل الكتاب **(وَالْعُدْوَانَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** أما الأحرار والربان **(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)** .

فرق كبير بين يصنع ويعمل، أي إنسان تمزق ثوبه، معه إبرة خياط وخيط فحاكه، هذا يسمى خائطاً، لا يسمى خياطاً، لأنه لا يصنع الألبسة، أما الذي حرفته صنع الألبسة يقال له: خياط، الإنسان العادي يخطئ، نقول: (لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أما إنسان يعلم، ويفتي بخلاف ما يعلم، ويفتي إرضاءً لزيد وخوفاً من عبيد، هذا يصنع الباطل، الأول ارتكب الباطل، أما الثاني فيصنع الباطل (لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

أيها الأخوة؛ هناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلقة بدعوة إلى الله، وهناك من يدعو إلى الله مخلصاً، ونسأل الله جل جلاله أن نكون من المخلصين جميعاً، كل مؤمن داعية، شئت أم أبيت، صدقت صدقك دعوة، تعففت عفتك دعوة، كنت أميناً أمانتك دعوة، كنت حليماً حلمك دعوة. حدثني أخ قال لي: أريد أن أركب مركبة من حلب إلى أحد أقضيتها، فالتقى بسائق قال له: أنا لا أذهب إلى هناك، ألح عليه، قال له: أبداً لا أذهب، سأله: لم؟ فلما ألح عليه قال له: ركب معي إنسان له زي ديني، فلما أوصلته إلى بغيته، قال لي: ارجع، ولا تأخذ أي أجر، وإلا كلفت من يضربك، فهذا أخذ قراراً ألا يركب مع إنسان له زي ديني إطلاقاً، فقال له هذا الشيخ الوقور: كم كنت تتوقع أن تأخذ أجر هذه الرحلة، أو هذا الطلب؟ قال له: أربعين ليرة، قال: أعطيك أربعين عن الأول، وأربعين عني، وعشرين إكرامية، تسامحنا؟ انظر إلى إنسان سبب لوحد كراهية للدين ولرجال الدين، وإنسان آخر قال له: أنا أعتذر عنه، أذبح المبلغ أنا، وفوقه إكرامية بعشرين ليرة، فرق كبير جداً بين من يحبب الناس بالدين، وبين من يبغض الناس بالدين.

قال داود عليه السلام فيما يخاطب ربه: يا رب أي عبادك أحب إليك أحبه

بحبك؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي نقي القلب ونقي الكفين لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا

يمشي بالنميمة تزول الجبال ولا يزول أحبني وأحب من يحبني وحبيني إلى عبادي،

قال: يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحبك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم

بآلاني وبلاني ونعمائي، يا داود إنه ليس من عبد يعين مظلوماً، أو يمشي معه في

مظلّمته إلا أثبت قدميه يوم تزول الأقدام

(أخرجه البيهقي في الشعب وابن عساكر من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما و أحمد في الزهد)

تناقض الطبع مع التكليف هو ثمن الجنة :

إذاً الدعوة إلى الله خالصة من لوازمها الإبتاع، من لوازمها التعاون لا التنافس، من لوازمها الاعتراف بفضل الآخرين، أما الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله من لوازمها الإبتداع، أن تأتي بشيء ما جاء به القرآن، ولم تأت به سنة النبي العدنان، ومن لوازم الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله فضلاً عن الإبتداع التنافس لا التعاون، مشكلة المسلمين التنافس، جميع المسلمين مستهدفون، وبأسهم بينهم، تجد الطرف الآخر الحروب طاحنة خلال منتهي سنة، الآن ينطق عنهم إنسان واحد، وأموالهم تنتقل فيما بينهم من دون قيد أو شرط، يتعاونون تعاوناً لا حدود له، أليق بالمؤمنين المسلمين أن يكون بأسهم بينهم؟ وألا تعجب من هؤلاء الذين لا حق معهم يتعاونون من أجل مصالحهم؟ إذاً التعاون من صفات المؤمنين، ويا أيها الأخوة، كتعليق سريع، الإنسان كما كنت أقول دائماً: له طبع، ومعه تكليف، ولحكمة أرادها الله عز وجل الطبع يتناقض مع التكليف، فإذا كان من لوازم الطبع أن تأخذ المال، فمن بديهيات التكليف أن تتفقه، وإذا كان من لوازم الطبع أن تملأ عينيك من محاسن النساء، فمن لوازم التكليف أن تغض البصر، وإذا كان من لوازم الطبع أن تبقى نائماً حتى ترتاح، فمن لوازم التكليف أن تستيقظ، وإذا كان من لوازم الطبع أن تخوض في فضائح الآخرين، فمن لوازم التكليف أن تصمت، ومن طبع الإنسان أنه فردي، والتكليف تعاوني، فأنت تتعاون مع الآخرين بقدر طاعتك لله وتتنافس معهم بقدر بعدك عن الله، فحيثما وجدت أناس متخاصمين متباغضين متناحرين بأسهم بينهم، فاعلم أنهم بعيدون عن الله عز وجل، وأوضح ما يقال الآن:

مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، أَوْ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا .

(أخرجه البخاري)

على مستوى فردي، على مستوى جماعي .

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

(سورة المائدة)

أما المؤمنون فمتعاونون، بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم، إذاً الله عز وجل يأمرنا بالتعاون، والطبع تتناقضه مع التكليف هو ثمن الجنة.

التواصي بالحق ربع النجاة وأحد أركانها :

أيها الأخوة، لا بد من أن أختتم هذا الموضوع المتعلق بالدعوة والدعاة، بأن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، أعيد وأكرر: الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، بدليل قول الله عز وجل:

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)

(سورة العصر)

التواصي بالحق ربع النجاة وأحد أركان النجاة، إذاً هي فرض عين، الدليل الآخر:
قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

(سورة يوسف)

فإن لم تدع إلى الله على بصيرة فأنت لا تتبع رسول الله، والذي لا يتبع النبي لا يحب الله.
قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)

(سورة آل عمران)

التطبيق والإخلاص يقوّيان الإسلام وهما ما نحتاجه هذه الأيام :

لكن الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وأقول لكم أيها الأخوة: أنت حينما تطبق ما تقول، وتخلص فيما تقول يهيك الله قوة تأثير لا حدود لها، حينما تطبق ما تقول، وتخلص فيما تقول، التطبيق والإخلاص يقوّيان، والآن الإسلام يحتاج إلى تطبيق، لا يحتاج إلى كتاب يتحدث عن الإسلام، هناك كتب تتحدث عن الإسلام لا تعد ولا تحصى، لكن الناس يحتاجون إلى مسلم يروونه بأعينهم، يتحرك أمامهم، إن تكلم فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف، لذلك أنت داعية شئت أم أبيت، أنت داعية ولو كنت صامتاً، وقد يكون الصامت أبلغ في دعوته من الناطق، هناك دعوة صامتة أساسها أخلاق الإسلام، وهناك دعوة ناطقة أساسها الفصاحة والبيان.

أنت حينما تصدق أنت أكبر داعية، وحينما تتقن عملك أنت أكبر داعية، وحينما لا تغش الناس أنت أكبر داعية، وحينما تكون أميناً أنت أكبر داعية، نحن الآن بحاجة إلى مسلم متحرك، نراه بأعيننا، الكتب لا تؤثر الآن، الذي يؤثر إنسان متحرك، كيف أن القرآن كون ناطق، وكيف أن الكون قرآن صامت، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، الآن المسلمون في أشد الحاجة إلى مسلم مطبق يروونه رأي العين.

الأمانة والصدق والنصح والإتقان هو ما يعيد للمسلمين مصداقيتهم :

الآن الذي يهز الناس موقف أخلاقي، أمانة، صدق، حلم، إتقان عمل، نصح، فهذا الذي يعيد للمسلمين مصداقيتهم.

والحمد لله رب العالمين